الإسلام دون تطرف - قضية إسلامية من أجل الحرية

كتبه: مصطفى أكيول

سارة فاجنر

في كتاب مصطفى أكيول، الإسلام دون تطرف، يواجه القارئ الكثير من المفاهيم الخاطئة والصور الكاذبة عن الإسلام، كمحافظ بطبيعته أو عنيف من خلال تتبع تاريخ الإسلام، وتطور الإسلام السياسي، ويقدم رؤيته الخاصة للإسلام السياسي والليبرالية الحديثة. يتناول الكاتب في كتاباته، بصراحة أسباب ظهور الإسلام المحافظ في الوقت الحاضر في العديد من الحكومات أو المجتمعات. وفي سياق الكتاب، يقارن الكاتب بين تركيا العلمانية السلطوية (سابقًا) مع الدول الإسلامية الأخرى، ويخلص إلى أن الإسلام ليس السبب وراء التسلط ولكن هناك عوامل أخرى ساهمت في ذلك. وبالاعتماد أيضًا على خبراته الشخصية، ومعتقداته الدينية، وتراثه التركي، يحلل أكيول ظهور الإسلام السياسي من خلال تحليل الماضي، وهذا يعني أنه يلقي الضوء على كل الحركات (التقليديون) المحافظون والأكثر تقدمًا (العقلانيون) داخل الإسلام، ويكمل تقييمه للحركات بمناقشة عوامل أخرى، مثل البيئة (الصحراء مقابل المناطق القاحلة)، والسياق الثقافي (القبلية) أو الاقتصاد (التجارة). ولتدعيم حججه وتفسيراته، يقتبس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة، ويشرح الوضع الاجتماعي والثقافي الذي شكل وأثر في تطور الإسلام (السياسي). في الجزء الأول من

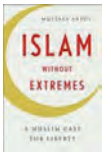

الكتاب، يركز أكيول على أصول الإسلام ويؤكد أنها الأساس لمستقبل أكثر ليبرالية، مستشهدًا بحقوق المرأة (ص 53) ودور الفرد (ص9). ثم يمضي في الحديث عن ازدهار الثقافة الإسلامية والتجارة والحياة السياسية، التي تراجعت أو انتهت بداية من القرن الثاني عشر الميلادي، نتيجة للتدهور الاقتصادي، ونقص التجارة، بالإضافة إلى أسباب أخرى (ص 125-127).

ومع ذلك، وبصرف النظر عن غياب التنمية الاقتصادية، يناقش أكيول أيضًا دور البيئة الصحراوية في تشكيل طبيعة الإسلام، ودور الطبقة الوسطى، ودور الحكام. هذا العرض النقدي يقيم النقطة الأخيرة، دور سلطة الحكام في العالم الإسلامي، وكيف أثرت مصالحهم في التنمية وفي تفسير الإسلام. أعتقد اعتقادًا قويًا أنه لا يمكن التأكيد بما فيه الكفاية على أهمية دور الدعم الحكومي أو فرض وصاية على الدين، والآثار التي قد تنتج عن ذلك.

يلفت أكيول الانتباه إلى اثنين من الخلفاء، الأمويين والعباسيين، مشيرًا إلى أنهما لعبا "دورًا مهمًا في هذه القصة من خلال تقديم تأييدهم للتقليديين" (ص 118)، على الرغم من أنه يرفض هذا الكلام في الجملة التالية واصفًا إياها بأنها "تفسير سطحي"

(ص 118)، وهنا أختلف مع هذا الحكم. فهو يدعي أن هذا التفسير سطحي؛ لأنه لا يفسر لماذا قررت السلطات دعم الحركة الأكثر محافظة وليس الحركة الأكثر عقلانية؟ ومع ذلك، فإن الأمر ليس كذلك. لا يهم لماذا تم اختيار التقليديين؟ المهم هو أنهم فعلوا ذلك. من وجهة نظر سياسية وواقعية وعقلانية، يتخذ الحاكم القرارات التي من شأنها أن تساهم في توطيد سلطته، وخصوصًا عندما يواجه منافسين لسلطانه. ربما تكون إحدى المجموعات التي اختارت استخدام العقل، وتتألف في معظمها من "المثقفين والمتعلمين" (ص 122) أثارت مثل هذا التحدي. ولذلك، فمن الطبيعي أن الحاكم يختار الجماعة التي تلائمه وتهتم بالحفاظ على الوضع القائم أكثر من الرغبة في التغيير. الآن يمكن القول إن حالة الدولة العثمانية أدحضت نظرية الحكام الذين يدعمون الإسلام المحافظ، حيث إن الإمبراطورية العثمانية اتخذت خطوات كبيرة نحو الليبيرالية. لكن عند تمعن الأمر، يتضح أن الوضع يدل على أن هذا النوع من الليبيرالية كان أمرًا حتميًّا وضرورة سياسية بسبب بنية السلطة السياسية. فإلى حد ما لم تكن الدولة العثمانية مركزية وتألفت من جماعات عرقية ودينية وثقافية مختلفة، و"تأثرت جميعها بالأفكار القومية الحديثة" (ص 147). وهكذا، فإنه من أجل الحفاظ على إمبراطوريتهم الإقليمية العظمى وسلطتهم، كان من المنطقي توفير الحريات للشعوب بدلًا من مخاطر مواجهة محاولات تمرد أو انفصال، كان من الصعب استخدام القمع على مدار فترات زمنية طويلة، ولاسيما في ظل تزايد المشاعر القومية. هذا المثال يوضح مرة أخرى مصلحة النخبة الحاكمة باعتبارها العامل المهيمن على تطور الإسلام وعلاقته بالسياسة والحكومة، فقط في هذه الحالة يتم تبني اتجاه أكثر ليبرالية.

هناك مثال ثالث ومختلف لمحاولات الحكام "أسلمة" بعض أشكال العقاب، على الرغم من أن القرآن لم يفرض هذه العقوبات. يصف أكيول كيف أن الخلفاء الأمويين والعباسيين "كان بإمكانهم التخلص من منتقديهم ببساطة عن طريق اتهامهم بالردة" (ص 276). ويتزامن هذا الاتهام تمامًا مع ظهور الحديث، الذي يبرر قتل المرتدين، مما جعل الحياة أكثر سهولة بالنسبة للخلفاء. وبالمثل، فإن الكفر، لم ينص القرآن الكريم على عقوبته في الدنيا، ومع ذلك تم تنفيذ عقوبات بالإعدام بسبب التكفير. بالطبع كانت هذه الأحداث والعقوبات سياسية وليست دينية" (ص 281). مرة أخرى، تلاعب الحكام بالإسلام من أجل تحقيق مصالحهم والحفاظ على سلطتهم.

وبطبيعة الحال، لا يمكن أن تكون النخبة الحاكمة هي العامل الوحيد عند تحليل طبيعة التيار المحافظ للإسلام أو الأنظمة الاستبدادية. أيضًا لدى المسيحية تاريخ طويل من سيطرة الحكام المتعطشين للسلطة أو حتى البابوات الناشطون سياسيًّا، بشكل لا يصدق، كما أن المسيحية في الغرب والنظم السياسية الغربية لا تختلف بشكل كبير عن الدول الإسلامية. وبناء على ذلك، فإن تفسيرات مثل دور البيئة والثقافة يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار أيضًا. فظهور الإسلام في المملكة العربية السعودية جاء في سياق الحكم المركزي نظرًا لعدم وجود الري (ص 133)، وبالمقارنة مع أوروبا، تشكل هذه الحالة أهمية خاصة، لأنها توضح أن الأرض الخصبة الغنية في أوروبا سمحت بوجود العديد من مراكز السلطة السياسية. فمن المعروف أن مركزية السلطة، ينتج عنها تلقائيًّا منافسة أقل، وأفكار وابتكارات أقل، وبالتالي يمكن أن تكون هدامة ومضرة بـ"التطورات التكوينية" (ص 128) في الإسلام. هناك مثال آخر على تأثير البيئة في الفكر السياسي الأميركي.

البلد الخصب المنفتح الواسع يؤدي إلى "الاعتقاد بحتمية التوسع" السياسة الامبريالية التوسعية، التي تؤثر في التقدم والرقي. لماذا لا يمكن إذن، أن يكون للبيئة القاحلة والثقافة القبلية نفس التأثير في الفكر الإسلامي، لكن فقط في الاتجاه المعاكس؟ يعترف أكيول أن مثل هذا الادعاء قد يكون عنصريًّا (ص 132)، لكنه يدحض بشكل مقنع أن هذا هو الحال، حيث إن بيئتنا تشكلنا وتؤثر فينا، أحيانًا بطرق واضحة وأحيانًا أخرى بطرق أقل وضوحًا.

عمومًا، يقدم أكيول تفسيرات عديدة مقنعة لركود الإسلام والاستبداد الذي حدث باسم الإسلام. وخاصة استخدام الآيات القرآنية وتاريخ وضع الأحاديث، التي كانت سببًا للمفاهيم الخاطئة عن الإسلام التي هيمنت على وسائل الإعلام الغربية. وكما هو الحال دائمًا على مدار التاريخ، لا يوجد أي سبب يوضح لماذا تطور الإسلام بهذا الشكل؟ ولماذا ظهر الحكام المستبدون في كثير من الأحيان في البلدان الإسلامية؟ ربما بسبب الطبيعة المتنوعة للإسلام، والبلدان الإسلامية والسياقات الثقافية المختلفة التي رافقت تطور الإسلام (السياسي). سواء عرض أكيول أو لم يعرض كل هذه الأسباب، فإن الجانب المهم في عمله، من وجهة نظري، هو أنه يقدم وجهة نظر جديدة للإسلام والتاريخ الإسلامي. وأخيرًا، يطرح عدة أسباب مقنعة، بعيدة عن طبيعة الدين الذي يشرح الوضع السياسي الحالي.